القسم الرابع

حالة المزروعات فى القطر المصرى ـ بعض أوليات عن ادارة القرى

ان ما أوردناه من تفاصيل عن حاجيات الفلاح وغذائه وطريقة معيشته يكفى للدلالة على أن خصب مصر لا يساهم الا قليلا جدا فى رفاهة سكانها وأن الزراعة لم تنل تشجيعات ذات بال . ذلك أن الزراع ليسوا مالكين للأرض ، وأن الارض فى عهد المماليك كانت مرهقة بكل الاتاوات التى تستطيع أداءها ، لأن المماليك لم يكونوا على استعداد للاتعاظ بدروس الماضى ، ولا للتبصر بما يأتى به الغد ، وانما كانوا يقصرون نظرهم على الوقت الحديد ، وكانوا على ثقة من انهم ينالون كل شىء بالعنف ، ولم يعنهم ان يصلحوا أرضا ، كانوا أشبه بمن يمر بها لغير مكث .

على أن الشكل الغريب فى حكمهم كان ينافى كل أسلوب اصلاحى مستمر ، فلقد كان الاصلاح فيما يتعلق بالأراضى بوجه خاص يقتضى تقديم نفقات أجسم من أن يضطلع بها ذلك الخليط من الرجال المجردين من كل ثقافة والذين لا يعرفون الا اشباع شهوة الترف عندهم .

برغم هذه الحالة المنحطة أمكن تحسين المنطقة الواقعة بين اسيوط وقنا حوالى منتصف القرن الماضى ، ويظهر أن اهلها كانوا يتعهدون الجسور والترع اللازمة للرى تعهدا كافيا ، ولكن ذلك انما حدث لان هذه المنطقة لم تكن واقعة تحت حكم المماليك .

بأهل تخوم وادى النيل شرقا قبائل عربيه نزحت مباشرة من اليمن وغربا عرب آخرون كانوا قد انتشروا فى شمال افريقية والاجزاء الغربية من أوروبا ، ثم أخذوا يقتربون فى أزمنة مختلفة من بلادهم الاصلية ، فبعضهم ظل يعيش عيشة البداوة ويسكن مع أغنامه فى أطراف الصحراء وبعضهم تقدم تقدما أوسع نحو النيل واستقلح .

احدى القبائل النازحة من ضواحى تونس استقرت بين جرجا وفرشوط فأقامت أولا على أراض بور ، واشترت بعض القرى واستحوذت على البعض الآخر بالقوة ، وانتهت بأن احتلت كل المنطقة الواقعة بين « حو » وبلدة الشيخ سليم . ومعظم عربان هذه القبيلة معروفون باسم الهوارة أصبحوا من كبار الملاك ، وكان زعيمهم شيخا كبيرا يقيم عادة فى فرشوط ، وآخر شيخ من شيوخهم كان اسمه « همام » حكم الصعيد من اسيوط الى أسوان ، وكان يجبى ايراداتها لجيبه الخاص مقابل اتاوة

سنوية قدرها ٥٠ الف اردب تحملها يوديها الى البكوات والملتزمات بالقاهرة .

شغلت صولة الشيخ همام بال ولاة الامور في القاهرة زمنا مديدا ، وكان لابد من ازدياد تلك الصولة بسبب منازعات المماليك فيما بينهم ، لولا أن على بك تمكن من الاستيلاء على السلطة المطلقة ، وما كاد يظنها قد توطدت بين يديه حتى سير على الشيخ تجريدة ناط قيادتها بصفيه محمد أبي الذهب فتقدم همام على راس ٣٥ الف فارس من رجال اراضيه لصدها ، ولكنه هزم مرتين بقرب اسيوط ، وبعد تفرق فرسانه الكثيري العدد هرب الى اسنا وبقي فيها الى ان مات عام ١٧٦٩ .

وعد اولاده مغنما لهم ان اشتروا الامان بجميع ما تركه والدهم من ثراء ، فجردوا من معظم املاكهم ، ويظهر ان سياسة البكوات حالت منذ ذلك الحين دون توسع اسرة كان نفوذها قد هدد سلطانهم .

اذا حكمنا على ادارة الشيخ همام بما خلف من احدوثة ، فان مصر الغليظة كانت سعيدة في حكمه ، وجميع الاهلين من فقير وغني ومسلم ومسيحي قد حفظوا له اكرم الذكرى . وما منهم احد لا يبدي اسفه على النظام الذي كان قد وضعه للامن والعناية التي كان يبذلها لضيافة الترع والجسور ودرجة الازدهار التي ابلغ الزراعة اليها ، ومهما يكن في احاديثهم من مبالغة فان هذه الشهادة الاجماعية تثبت على كل حال ان الشيخ همام قد احسن الى البلد الذي حكمه ، وبهذا سيذكر اسمه سنوات طوالا .

بعد وفاته اصبح الصعيد ملجأ للبكوات الذين نفوا واحدا تلو الآخر ، وظل هدفهم الاوحد في مطامعهم كما هو معلوم ان يعودوا فيحكموا القاهرة ، ولاصابة هذا الهدف كان لابد لهم من ثقال الاطيان بضرائب فادحة . ومن هنا يتبين كيف ان تاريخ اولئك المنفيين يتصل بتاريخ انحلال الزراعة في مصر العليا .

لما طرد علي بك محمدا ابا الذهب كان هذا اول من لجأ الى الصعيد مع زميله اسماعيل ثم عاد هو وزميله بعد مدة وارغما علي بك على التخلي عن عاصمته واسراه بقرب العريش ، ومنها ارسلاه الى القطر المصري وفيه مات مسموما على ما يظهر .

الا ان محمدا ابا الذهب زحف على الشام واستولى على يافا ثم لقي

حتفه أمام عكا ، فتراجع جيشه فى اختلال الى القاهرة . وعين كاشفان من حاشيته هما : مراد وابراهيم بيكين ، ويظهر ان الحكم آنئذ اقتسم بين فريقين احدهما من بيت على ورئيساه حسن واسماعيل والفريق الثانى من أسرة محمد تحت قيادة ابراهيم ومراد ، وهذا الفريق الاخير سقط فانسحب رئيساه الى الصعيد عام ١٧٧٥ وأصبحا مسيطرين على مجرى النيل من بنى سويف حتى ما بعد أسوان الى أن هاجمهما اسماعيل . ولكن اسماعيل لم يلبث أن تخلى عنه أنصاره وعلى الاخص زميله حسن حين التقى الفريقان المتقاتلان فيما يلى فرشوط ، فاضطر الى الهزيمة ولجأ أولا الى سوريا ثم نقل منها الى الاستانة ثم الى درنة على شاطىء بلاد البربر .

هرع مراد وابراهيم الى القاهرة حيث حكما القطر المصرى كله طيلة عام بالاتحاد مع حسن بك ، ولكن التفاهم بينهم لم يطل أمده عن ذلك العام ، فاضطر حسن الى اخلاء مكانه وسافر الى السويس ، ومنها أبحر مع أناس من صحبه فنزل فى القصير ثم استقر فى قنا . وعلم اسماعيل بالفتنة الجديدة تتهيأ له فسرعان ما لحق بحسن مجتازا الصحراء من ضفة النيل اليسرى ، وهناك استأنفا صلتهما القديمة وجمعا وسائلهما واتفقا على الاحتفاظ بالمنطقة الواقعة بين قنا وأسوان واقتسام ايراداتها .

هذا ما انتهت اليه الامور حين كتب سافارى وفولناى رحلتيهما ومنذ ذلك الحين لم يكن شأن البكوات أقل تقلبا . فالقبطان باشا الذى نزل فى ثغر مصرى عام ١٧٨٥ طرد مراد وابراهيم من القاهرة واستدعى مكانهما بيكى الصعيد تاركا لهما جزءا من جيشه ، فاستخدماه لمطاردة منافسيهما السابقين . وهذان من جهتهما انتهزا عودة الجيش الى الآستانة ليعودا على اعقابهما الى بنى سويف فجعلاها مرة ثانية حد حكمهما ، ولم يتيسر ابعادهما الى ما فوق بنى سويف .

كان ابراهيم ومراد قد استقرا مدة خمس سنوات — الاول فى منفلوط والثانى فى جرجا — عندما توفى اسماعيل وبيكوات آخرون وكثير من المماليك المرتبطون به بالطاعون فى مصر . فلما أوشك حسن أن يظل منفردا وكان معظم الذين بقوا قد خانوه اتقى بهربه من الصعيد مرة ثانية انتقام مراد وابراهيم اللذين كانا قد استوليا على القاهرة بغير قتال . فزحفا بلا ابطاء يتعقبانه ودفعا به الى ماوراء الشلال الاول ، وفى النهاية تعبا من مداومة القتال ويئسا من الظفر به فى بلاد النوبة فعقدا معه صلحا بمقتضاه منح حسن بك مع عثمان وصالح اللذين كانا قد انضما اليه ايرادات المنطقة الواقعة بين أسيوط والجبلين لتنفقات بيوتهم على أن لاينحدروا من هذه النقطة الى مادونها ، وقد سلموا لتأمين هذه المعاهدة بيكين من أنصارهم كان احدهما لا يزال مقيما فى القاهرة عندما استولى الفرنسيون على القطر المصرى .

بهذا لم يتسن للصعيد منذ حكم البيكوات المنفيون بعد وفاة الشيخ همام أن ينال على يدهم ادنى تقدم اذ لم يكن لهم هم الا استعادة سلطانهم، فظل أهالى الريف من جراء ذلك فى عسر شديد . أكواخهم مبنية بالطوب النيء ومعظمها محاط بخرائب تنم عن تناقص عدد السكان . وقاطنوا هذه الاكواخ يستخدمون فى اعمال الرى الشاقة جزءا من السنة ، ويقتاتون كما تعلمنا بخبز الذرة وبعض الخضراوات ، وكل أثاثهم عدد قليل من الاوانى الخزفية وادوات أخرى حقيرة . لايكادون يجدون من جنى عملهم ما يساعدهم على تجديدها اذا كان قد بقى منه شيء بين أيديهم بعد أداء الضرائب .

ان سلطة الشيخ همام فى الاقاليم الجنوبية القصية بمصر كانت قد سلبت مختلف قبائل العرب المقيمة فى ابعد تخوم وادى النيل النفوذ الذى بسطوه على الفلاح فى أرجاء اخرى من القطر ، وبفضل النظام الذى وضعه للأمن أثناء حكمه تمكن البيكوات البعيدون عن القاهرة من الحصول على الموارد التى كانت الاقاليم الاخرى لا تستطيع تقديمها لهم .

يحتل ضفتى بحر يوسف الى يسار النيل واقليم العطفية فى الجهة المقابلة عرب قد تحولوا الى فلاحين ولهم السيادة على عدة قرى ، وأولئك العرب باتخاذهم ضربا جديدا من المعيشة لم ينزلوا من اجل ذلك عن عاداتهم القديمة وخصوصا الحصول بالاكراه على ما يأبون الحصول عليه بكدهم .

فهم يستحوذون عنوة على أجود الاطيان ويحولون مياه الرى ويقطعون الجسور فى الوقت الملائم لهم غير عابئين بمصالح جيرانهم اذا آنسوا منهم العجز عن مقاومتهم . وهؤلاء الزراع من نوع خاص الذين يفلحون الارض ورماحهم فى ايديهم يتخذون على الفلاحين الاصليين ضربا من السيادة . وبالنظر الى انه يتعذر الزامهم اداء الضرائب المقررة على الاراضى الزراعية لانهم قادرون على التخلص منها بما لهم من قوة ، فهذا الامتياز الذى يدعونه ينقلب ضد مصلحة السكان الاصليين الذين يوفون بهذا السبب مالا يدفعه أولئك العرب .

الحقوق التى يغتصبونها تذهب الى حد أنهم يسلبون حاصلات القرى المجاورة لهم من غير مبالاة ، وذلك كلما قصرت حاصلاتهم عن الوفاء بحاجتهم . نعم انهم فى مقابل هذا يمنحون نوعا من الحماية تلك القرى التى تصبح تابعة لهم ، الا أن هذه الحماية التى تشترى دائما بالثمن الغالى لا تجديها دائما ، بل رب قرية منها واقعة بين قبيلتين متخاصمتين تصبح نهبة للواحدة منهما آنا وللاخرى آنا .

اذا كان جوار أولئك العرب المستفلحين فى هذه الدرجة من الخطر على الفلاحين ، فناهيك بما يتعرضون له من ضيم العرب العائشين تحت الخيام

الذين يتنقلون تبعا لفصول السنة بين جهة وغيرها وهم متاهبون في كل آن الاستيلاء على ما يطيب لهم والفرار بقطعانهم حين يستطاع قتالهم بقوة تفوق قوتهم .

علاوة على هذا فما من بدوي لا يعتقد انه فوق الفلاح بما لا يقاس . ولا يوقن كذلك ان امتهانه مهنة الفلاحة ضرب من العار . فما في زعمه حق مشروع كحق القوة ، ولا يستطو البدو في العادة الا على الغزل الضعفاء . على أن المغانم التي يغنونها تقذف بالبداهة في روعهم انهم ملاك البلاد الحقيقيون .

ليست مصر الوسطى وحدها هي التي يخشى اهلوها مجاورة العرب ، بل ان بعض اجزاء الفيوم هي ايضا معرضة لنهب القبائل الرحل بين وقت وآخر .

تلك القبائل ، وكلها من البلاد البربر ، هي متعادية ومتنازعة فيمابينها ولكن تلك القبائل تبعث في القلوب رعبا يفضي الى ترك الفلاحين كل شيء حين تدنو منهم . وكل من تلك القبائل تحذر اشد الحذر من أن تتلاقى ، ولو لم تكن حاصلات الفلاحين ومواشيهم أيسر غنما لها لاجهز بعضها على بعض .

لما جيت اقاليم الفيوم كانت قبيلتان قد توطنتا فيه ، هما : قبيلة الفرجان شمالا وقبيلة السمالوس جنوبا ، وكلتاهما من العرب الذين احتفظ بعضهم ببداوته ، وبعضهم انتشر في قرى مختلفة وتخلقوا بأخلاق الفلاحين .

فالقرى التي استوطنها عرب من احدى القبيلتين اعتمادا على حماية قبيلتهم يطمئنون الى أن النهب لا يقع عليهم الا من القبيلة الاخرى ، أما الذين لا يتمتعون بأن يشد ازرهم فريق من هؤلاء السادة فيتعرضون بوجه يكاد يكون محققا لتهاجمهم تكرارا احدى القبيلتين او الاخرى .

ان ضواحي المدن حيث للحكومة جانب من القوة هي آمن من استباحات اولئك العرب ، ولكن معظم ارياف الوجه البحري معرضة كالفيوم لتنهبها القبائل المتعددة التي تغشى الصحراء من برزخ السويس او ضفاف بحيرة مريوط القديمة .

يعبر النيل مباغتة فرسان من هذه القبائل ويطرقون القرى ، فينتزعون منها المواشي والحاصلات التي يجدونها . وهناك حالة خاصة يتخذونها علة لهذا النهب .

معظم اهالى الدلتا منقسمون الى حزبين متعاديين : أحدهما ياسم «سعد» والثانى باسم «حرام» يؤذى احدهما الآخر بكل اساليب الايذاء . اذا سئلوا عن مبعث هذا الانقسام قصوا عليك اساطير مضحكة او اعترفوا بنية سليمة انهم يجهلون اصله ، ومهما يكن من الامر فليس مبعث الخلاف ما يشغل لهم بالا بالنظر الى ان المعارك بين الحزبين لم تنقطع قط ، وان كلا منهما يجد وقائع جديدة تحفزه لاخذ الثأر .

مع أن وجود هذين الحزبين غير خاف على أحد فان مشايخ القاهرة المظنون فيهم أنهم أعلم الناس بتاريخ بلادهم ليسوا متفقين على الحوادث التى تولد منها هذا الانقسام . ولكن أقرب ما سمعته من الانباء عن هذا الانقسام الى الاستساغة يلخص فيما يأتى :

فى اثناء الحرب الاهلية التى روعت بلاد العرب فى ايام الخليفة يزيد بن معاوية حوالى عام ٦٥ للهجرة ، اتخذ أحد الجيشين المتقاتلين فى معركة ليلية شعارا اسم « سعد » والآخر اسم « حرام » وسعد وحرام كانا زعيمى عشيرتيهما ، وتسمتا باسميهما ، ثم ظل المتقاتلون وأعقابهم يتسمون بهذين الاسمين فيما بعد وذلك بسبب دوام النزاع بينهم وقيام عقبة لاتذلل دون صلحهم .

العرب الذين توافدوا فى أزمنة مختلفة لاستيطان مصر جلبوا معهم اسم الحزب الذى كان آباؤهم منتمين اليه والعداء المتأصل للحزب الآخر ، وهذا العداء استمر جيلا بعد جيل حتى الآن .

الى هذا الانقسام بين الاهالى يرجع تأثير البدو وما كانوا يحدثونه من الذعر فى داخلية الدلتا ، فكان عدد قليل من فرسانهم يسلب عادة من غير اية مقاومة قطعانا كان فى وسع الاهلين وعددهم كثير ان يذودوا عنها بسلاحهم ، ولكن اولئك البدو الذين كانوا يطمئنون دائما الى حسن اللقاء والمؤازرة من القرى المعادية التى يجتاحونها ، مع أنهم لم يسبقوا لهم مودة مع أحد الحزبين الا بقدر ما توحيه اليهم مصلحتهم العاجلة ، كان يتيسر لهم بسبب ممالاة كل فريق لهم على الآخر ان ينهبوا الاقليم كله غير مدافعين .

اما الامن الداخلى فى القرى فيتولاه على قدر معلوم شيخ او اكثر ، وهم أيضا بمعاونة الكتبة الجباة يحصلون الضرائب ، وهذه الوظيفة تخولهم نفوذا يسيئون استعماله احيانا . على ان اولئك المشايخ منقسمون بعضهم على بعض بين قرية واخرى ، وهم يسلحون لاتفه الاسباب فلاحيهم للقتال . ولما كانت هذه الانقسامات توطد سلطة المماليك فهؤلاء كانوا لا يتورعون عن تغذيتها لتستمر .